

فردريش شيلر

بمناسبة اغتيال ألمانيا بزرگراه

للأستاذ محمد عبد الله عنان



منذ عامين احتفلت ألمانيا بذكرى شاعرها الأكبر «جيتته»
لمناسبة مرور قرن على وفاته ؛ وتمتثل ألمانيا اليوم بذكرى
شاعرها الثاني « شيلر » لمناسبة مرور مائة وخمسة وسبعين عاماً
على مولده . واذا كانت حياة الخالدين تمثل دائماً في الأذهان
المستتيرة ، فإن الاحتفاء بهذه الذكريات يضاعف الاهتمام بسيرهم
وآثارهم . ومن ثم فانا نلتبس هذه المناسبة لنأق على ترجمة
الشاعر العظيم

كانت حياة شيلر صفحة مؤثرة من ذلك الكفاح الذي
يضطر الى خوضه أصحاب النبل الأعلى حتى يفوزوا بمثلهم أو
يزهقوا دونها ؛ وقد أنفق حياته وشبابه في خوض هذه النمار ،
حتى اذا اكتملت له أسباب الفوز والطمانينة ، غادر هذه الحياة
شاباً في إبان ظفوره ، وذرورة خصبه ، وروعة شاعريته ؛ وكان
مولده في الناشر من نوفمبر سنة ١٧٥٩ في مدينة مارباخ الواقعة
على نهر نكر في أسرة رقيقة الحال ؛ وكان أبوه يوهان كاسبار

جراحاً مساعداً في الجيش ، استقر في مارباخ بعد عوده من
الحرب وتزوج اليزابيث كودفايس ، وهي ابنة صاحب فندق ؛
فوزق منها أولاً بابنة تدعى اليزابيث ؛ ثم كان مولد الشاعر ، ثم
ابنة أخرى تدعى لوزا . ونشأ الطفل فريدرش أو فرتز (شيلر)
ضعيف البنية ، كثير الحياء والوجل ، وتلقى دروسه الأولى في
مدرسة لورش ؛ ثم انتقلت الأسرة الى مدينة لودفيجسبورج حيث

نقل الأب ، وكانت يومئذ مقام دوق فرتيمبورج ؛ وهناك التحق
شيلر « بالمدرسة اللاتينية » ، وبدأ دراسة الأدب واللاتينية ،
وقرأ هوراس وأوفيد وفرجيل ؛ وكان لأستاذه القس موزر أثر
كبير في تكوينه . وفي سنة ١٧٧٣ دخل شيلر « أكاديمية كارل »

التي أسسها الدوق في شتوتجارت ، ودرس الحقوق أولاً ثم
الطب والتاريخ ، وأظهر تفوقاً في اليونانية واللاتينية ؛ بيد أنه
لم يكن ميالاً الى هذا النوع من الدراسة ، وكان شغوفاً بالأدب ،
تهجس به في أوقات فراغه شاعرية قوية ؛ وكان يكثر من قراءة
هومير وفرجيل وكلوبشتوك شاعر ألمانيا في هذا العصر ، ويتأثر

بتفكيره أعماً تأثير . وفي ذلك الحين ظهرت قطعتان مسرحيتان
قويتان هما : « أوجولينو » لجرستنبرج ، و « جتزون برنجنجن »
لجيتته ؛ فتأثر شيلر بقراءتهما واتجه ذهنه الى المسرح ؛ وكتب
بعض القصائد والمناظر المسرحية الأولى ، ولكنه مزقها ، ثم بدأ
بكتابة روايته المسرحية الأولى : Die Räuber « قطاع الطريق » .

وفي سنة ١٧٧٩ أتم دراسته وحصل على أجازته ، وسنحت له
بهذه المناسبة أول فرصة لرؤية الشاعر العظيم الذي ملأ صيته ألمانيا
يومئذ ، وتسمى « جيتته » ؛ فقد وفد مع دوق قيار على شتوتجارت
في فاتحة سنة ١٧٨٠ ليشهدا احتفال الأكاديمية بتوزيع
الأجازات . وكان شيلر يومئذ فتى في عشرينه ، يحمل أجازة

الطب والجراحة ، ولكن هوى الشعر يحمله ويملاً جوانحه .
وكان يتوق الى التعرف بزعم الشعر وإمامه ؛ ولم يكن يعلم أنه
سيغدو في أعوام قلائل قرينه وزميله الأوفى . ولم يهتم جيتته في
هذا اللقاء الأول بأمر الشاعر الحدث الذي لم يسمع به أحد بعد ،
ولكن نجم الشاعر الحدث كان على وشك البروغ . ذلك أنه ما كاد
يعين على أثر تخرجه طبيباً في حامية شتوتجارت بمرتب يسير ، حتى
عكف على إتمام درامته « قطاع الطريق » ، ولكنه لم يلق ناشرأ

ابنة كتيبي في مانهايم ؛ وكانت فتاة ساحرة لعوباً خطيرة الأهواء ؛ وفكر شيلر في الاقتران بها ولكن أباهار رفض في رقة وأدب لأنه لم يأنس في الشاعر بلا ريب مستقبلاً يحمل على الطمأنينة . ثم تعرف شيلر بعد ذلك بفتاة تدعى شارلوت دوستانيم ، وشغفت هي به حباً ؛ ولكنها لم تلبث أن اقترنت بضابط يدعى « فون كالب » ؛ وانتقلت معه الى فيمار ؛ واستحال حب الشاعر ومدام فون كالب بعد ذلك الى صداقة حميمة استمرت مدى الحياة

وأففق شيلر في مانهايم زهاء عامين ونصف عام ، وهو يشهد آماله تنهار تباعاً ، وموارد العيش تضيق به . وأخيراً اعزم أن يغادر مانهايم ، وأن يهجر تلك المهنة التي لم تؤه قوته — مهنة القريض ؛ وأن يلتمس العيش من مهنة أخرى مستقبلاً للشعر أوقات فراغه ؛ فعاد مانهايم بعد وداع ممزق لصديقه الحميم شترايشر ؛ وقصد الى قرية جوليس بالقرب من لاينز حيث كان يقيم صديقه العزيز « كوزر » وكان كوزر ذهنًا رفيعًا وقلبًا كبيرًا ، التي فيه الشاعر مثل الصداقة الأعلى ؛ فأقام الى جانبه مدى حين في جوليس ثم في درسدن ، وأنتم في تلك الفترة قصته « دون كارلوس » (سنة ١٧٨٦) . وكان ظهورها ظفرًا حقيقياً للشاعر ، وكانت في الواقع بداية مجده ، وحداً فاصلاً بين ماضيه الناصر ومستقبله الباهر . وكانت مدينة فيمار يومئذ كعبة الشعر ومقام إمامه جيته ، وفيها يجتمع حول الشاعر الأكبر جمهرة من الشعراء والأدباء مثل هررد ، وفيلاند ، وماير ، ويظلمهم دوق فيمار جميعاً برعايته ؛ وكان شيلر يفكر منذ حين في السفر الى فيمار ليجرب حظ في ذلك المحيط الأدبي الزاهر ؛ وكانت صديقته الحبيبة مدام فون كالب تقيم هناك منذ حين ؛ وكان فيلاند يدعوها فوق ذلك للاشتراك معه في تحرير مجلته « مراكور » ؛ فقصد الى فيمار في أغسطس سنة ١٧٨٧ ، وقلبه مغمم بالأمال الكبيرة ؛ فاستقبله الدوق بفتور ، ولكن مدام فون كالب استقبلته بمطف مؤثر ؛ ورحب به فيلاند الشاعر أيعا ترحيب ، واشترك معه في تحرير مجلته ؛ واشترك أيضاً في تحرير مجلة أخرى في « بينا » وترك مجلته الخاصة ؛ واستمر يعاون فيلاند مدى عامين ، ثم ترك التحرير معه ، ولكنه لبث صديقه الحميم

وفي سنة ١٧٨٨ ، أقام شيلر حيناً في قرية « فولكشتات »

يقوم بطبها ، فافترض نفقات الطبع من بعض أصدقائه وظهرت القصة سنة ١٧٨١ غفلاً من اسم مؤلفها ؛ وهي قطعة مسرحية عنيفة تحمل طابع البداية ، وفيها يصور شيلر كثيراً من عواصف حياته . ومثلت « قطاع الطريق » عقب صدورها في شتوتجارت ، ثم مثلت في العام التالي في مانهايم ؛ وأحدث ظهورها وتمثيلها نجاحاً كبيراً . ولكن شيلر لم يؤخذ بهذا النجاح الجزئي . وكانت وظيفته العسكرية تنقل على نفسه ، فاعتزم مغادرة شتوتجارت خفية الى أفن أوسع ، وفي أكتوبر سنة ١٧٨٢ غادرها مع صديق موسيقي يدعى شترايشر الى مدينة مانهايم . وكان يحمل معه مخطوط درامة جديدة هي Fiesco « فيسكو » فعرضها على مدير مسرح يدعى (دالبرج) فأعجب بها ومثلت بنجاح ، وكتب في الأشهر التالية Kabale und Liebe « المؤامرة والحب » ومثلت أيضاً ؛ وكتابتها قرينة « قطاع الطريق » في طابعاها العنيف وحماسها الساذجة . بيد أنه رأى المسرح لم يحقق أملاً ، ولم تسعفه موارد القطع التمثيلية ، فاضطر أن يبحث للعيش عن وسيلة أخرى ، ولكن في دائرة الأدب أيضاً ، فأصدر مجلة أدبية نقدية اسمها « ثاليا » Thalia وظهر العدد الأول منها في مارس سنة ١٧٨٥ وفيه قسم من درامته الجديدة « دون كارلوس » ولكنها لم تستقبل بحماسة . وفي ذلك الحين جاء دوق فيمار الى « دار منشآت » لزيارة صهره « اللاند جران » وكان شيلر قد سمع كثيراً عن نباهة ورفيع خلاله وتمضيده للأدب والفنون ، فسار لرؤيته مزوداً ببعض خطابات التوصية ، فاستقبله الدوق بعطف ، وأذن له أن يتلو بين يديه الفصل الأول من « دون كارلوس » ، فاستحسنه وشجع المؤلف بكلمات طيبة ، واستأذنه شيلر في أن يهديه قصته فأذن له ، وأنتم عليه بلقب « مستشار » في خدمته ، وهو لقب لم تكن له سوى قيمة أدبية واجتماعية وكان شيلر يومئذ فتى في الخامسة والشرين بضطرم أملاً نحو العلياء والمجد ؛ وكان يقضي حياة عاصفة في الدرس والتفكير والكتابة ؛ وكان قلبه الكبير يخفق أحياناً للحب ؛ ولكن في اعتدال ورزاة . ولم تحمل شيلر نحو النساء تلك الثوبات الغرامية الماصفة التي كانت تحملها حياة جيته ؛ ولكنه عرف الحب في تلك الفترة ؛ وتعلق باديء بدء بفتاة تدعى مارجريت ششان ، وهي

تاريخ التعاون الأدبي . كان شيلر رجل المثل العليا ، وفيلسوفاً ذا آراء ونظريات خاصة في الحياة . ولكن جيته كان رجل الحقيقة ، يمرض ما في الطبيعة ويصوره كما يراه ؛ وكان شيلر شاعر « الدراما » وكان جيته شاعر الخيال والفروسية ؛ ولكن كلا منهما كان جندياً عظيماً لبناء الآداب الرفيعة ومحطيم الآداب المتدلة ؛ وكلاهما قائد عظيم لحركة « المصافة والدفع » Sturm und Drang التي كانت ظاهرة التفكير والآداب الألمانية في أواخر القرن الثامن عشر ، والتي كانت ترمي إلى محطيم القديم وتجديد كل شيء ؛ وكان لهذه الصداقة الحيمة ، وهذا التعاون الأدبي الوثيق بين الشعراء الكبيرين أثره في نفس جيته وفي نظمه ، يبدو ظاهراً في « أغانيه » Balladen ، وفي قصة « هرمان ودروتيا » ، وغيرها مما أخرج في هذا المهد



صورة تاريخية تمثل الشاعر (الى اليسار) وألمه جيتي (الى اليمين)

وفي سنة ١٨٩ عين شيلر أستاذاً للتاريخ بجامعة ينا بمعاونة صديقه وأستاذه جيته ، وفي العام التالي اقترن بالآنسة لتجفد التي تعرف بها وبأبسطها قبل ذلك بأشهر قلائل ؛ وبذلك استقرت حياته ، وعاش في نوع من الصفاء والرغد ؛ وانكب في هذه الفترة على دراسة التاريخ ؛ وألف كتابه عن « حرب الثلاثين » Geschichte des Dreissigjarige Kriegs ؛ وأصدر مجلة أدبية فلسفية بعنوان « الساعات » Die Horen ، كانت نموذجاً قديماً

المهادنة ، وهناك أهم قصته « المهام » ، وتاريخ « ثورة الأراضي السفلى » الذي بدأ من قبل Geschichte des Abfalls der Vereinigten Niederlande

في ذلك الحين كان جيته في إيطاليا يطوف ربوعها ؛ ثم عاد من رحلته في سبتمبر . وكان شيلر يرقب مقدمه ليراه ويعترف به . وسنحت له هذه الفرصة ؛ واجتمع بالشاعر الأكبر وصديقه مدام دي شتاين وهرردر في منزل أسرة لتجفد التي صاهاها شيلر فيما بعد . وهناك رأى شيلر ذلك الرجل الذي بلغ ذرى المجد ، والذي رآه من قبل لأول مرة في حفلة توزيع الأجازات عام تخرجه من المدرسة ؛ وكان شيلر يعلق على هذه المقابلة آمالاً كبيرة ؛ ولكن جيته استقبله بفتور ظاهر ، ولم يكن قد لفت نظره إلى ذلك الحين . وكانت صدمة مؤلمة لشيلر ؛ فكتب إلى صديقه كرتز يصف أثر هذا اللقاء في نفسه : « يلوح لي من كل الظروف أن الفكرة السامية التي لدى عن جيته لم يزغرها هذا التعارف الشخصي ؛ بيد أنني أشك أننا نستطيع أن نتقارب بأى وجه . إن قسماً عظيماً مما يزال يشغلني ، وبما زلت أوئل قد انتهى وقته لديه ، والواقع أن كل شخصه يميل إلى ناحية غير التي أميل إليها ، وبين وجهات نظرنا اختلاف جوهري . وعلى أي حال فلنأنا نستطيع أن نستخلص من هذه المقابلة شيئاً مؤكداً أو ثابتاً . وسوف يعلنا الزمن ما تبقى » . ولما عاد شيلر إلى فيمار من مقامه المنزل لم يحاول كثيراً أن يرى جيته . بيد أن فتور جيته نحوه لم يدم طويلاً فقد رأى في قصيدته « آلهة اليونان » جمالاً يلفت النظر ؛ ويعترف شيلر من جهة أخرى بأنه كان من ذلك الحين يخشى نقد جيته ، وأنه كان متأثراً بتلك العاطفة حيناً وضع قصيدته « الفنانون » وتأنق في صياغتها

على أن الذي لا يرب فيه هو أن لقاء الشعراء - جيته وشيلر - كان من أعظم حوادث حياتهما إن لم يكن أعظمها جميعاً . وسرعان ما تحول ذلك الفتور الذي أبداه الشاعر الأكبر نحو زميله الفتى إلى حب وإعجاب خالصين ، ولم تمض أعوام قلائل حتى توثقت بينهما أواصر صداقة عميقة ؛ ولم يمنع تنافسهما للتبيل في آفاق الشعر أن تبقى هذه الصداقة إلى الأبد ، مقرونة بالوقاء الخالص والإعجاب المتبادل ، وأن تندو صفة خالدة في

مدى حين . وتلقى جيته نبأ الفاجعة وهو في فراش مرضه ، فبغت الى نفسه أمة حزن ، وسمع ليلاً وهو يبكي أحر بكاء . وكتب يومئذ الى أحد أصدقائه مشيراً الى فقد شيلر : « لقد فقدت نصف حياتي » ، وغلب عليه الحزن حيناً فأضرب عن العمل والكتابة ؛ والى ذلك يشير بقوله : « إن مذكراتي في هذه الفترة صحف بيضاء . والصحف البيضاء عنوان الفراغ في حياتي . ولم يك ثمة شيء يستهويني في تلك الأيام »

وهكذا مات شيلر في إبان مجده وذروة شاعريته ، ولم ينعم بالحياة الناعمة المستقرة إلا ردهاً قليلاً ؛ فكانت حياته كلها صفحة كفاح مستمر ؛ بيد أنه خرج من هذا الكفاح ظافراً متمسكاً بميسم المجد والخلود . ولم يكن شيلر شاعراً مبدعاً فقط ، ولكنه كان فيلسوفاً عظيماً ، وفناناً كبيراً ، ومؤرخاً بارعاً ؛ وكان يؤمن بالثقافة كوسيلة لرفع الانسانية الى ذرى القوة والمظلة ، ويرى أن الفن ليس ترفاً لذوى الفراغ والجدوة ، وليس لهواً يستمره الخامل ، ولكنه قوة عظيمة ذات أغراض جديّة وإن كانت وسائله شائقة سارة ، وإبه قرين الدين بماون على تنظيم هذا العالم . وكان ذهننا نائراً جريئاً جليداً مجيداً بالحرية ، وعمقت كل صنوف الاستعباد ؛ وكان قلباً رقيقاً يفيض حساً وانسانية ؛ خبيراً بأسرار الطبائع والنزعات البشرية ؛ وكان مؤرخاً بارعاً ينفذ إلى أسرار التاريخ ، ويستوعبها بقوة ودقة ، وهذه النزعة التاريخية الناقدة تبدو في كثير من قطعه المسرحية . ولو مد في حياة شيلر ، كما مد في حياة صديقه جيته ، لظفرت منه الآداب الألمانية بأضعاف ما ظفرت ؛ وكان على الأرجح ينازع جيته إمارته في الشعر الألماني ، بيد أنه مع ذلك تبتوأ إلى جانبه المقام الأول في عالم المجد والخلود

محمد عبد الله عثمان
المحامي

للتفكير الرفيع ، وفيها كان يكتب أمة العصر : جيته ، وهردر وكانت ، ونغته ، ومابر ، وأنجل ، وجا كوبي وغيرهم ؛ وكان لها أثر عظيم في سير الثقافة الألمانية والتفكير الألماني في ذلك العصر . وكان شيلر من أنصار الثورة الفرنسية التي كانت تضطرم في ذلك الحين ، وظهر ذلك العطف في كثير من كتاباته وقصائده حتى أن « المؤتمر الوطني » الفرنسي منحه لقب « مواطن فرنسي » . وفي تلك الفترة أيضاً أخرج شيلر درامته القوية « فالنشتان » Wallenstein (١٧٩٩) ، واستمر في تدريس التاريخ في بينا حتى سنة ١٨٠٠ ، ثم استقال من منصبه ، وعاد فاستقر في فيمار إلى جانب جيته ؛ وهناك أخرج عدة قطع جديدة : ماريانستوارت ؛ وعذراء أورليان Jugfrau von Orleans ، وعروس مسيني Braut von Messina ؛ فكان لصدورها جميعاً دوى عظيم ؛ وكانت جميعاً من أبداع ما كتب

واستقر شيلر في فيمار نهائياً ، ولم يغادرها إلا ليزور برلين زيارة قصيرة ليشرف هناك على إخراج بعض قطعه . وكانت فيمار يومئذ كعبة الأدب الرفيع ، يجتمع فيها حول إمامي الشعر ، جيته وشيلر ، صفوة من أقطاب الشعر والأدب ؛ وكانت صداقة جيته وشيلر أبداع وأروع مظاهر هذا المجتمع الأدبي الباهر . وفي سنة ١٨٠٤ كتب شيلر درامته « ولهم تل » Wilhelm Tell ، فكانت أعظم قصصه وأروعها . والمعروف أنه استقى موضوعها من صديقه جيته ، وكان جيته قد زار سويسرا قبل ذلك بقليل ودرس هناك تاريخ تل بطل سويسرا القومي ، وزار الأمكنة التي تقول الأسطورة إنها كانت ميادين بطولته ، لينتفع بذلك الدرس في قصة يعترم كتابتها عن تل . ولكنه لما عاد الى فيمار نبذ الفكرة ، وأعطى مواد دراسته الى شيلر لينتفع بها هو ؛ فاستقى منها موضوع قصته « ولهم تل » ، فجاءت أبداع ما كتب ، وأثارت من جيته أيما إعجاب . بيد أنها كانت أيضاً آخر ما أخرج شيلر . ذلك أنه مرض في أوائل سنة ١٨٠٥ ، ومرض أيضاً جيته في الوقت نفسه ؛ واشتدت عليهما وطأة المرض ، حتى صرح جيته بأنه يشعر بدنو أجله ، وأن أحدهما لا بد ذاهب . ولكن الذي توفي هو شيلر . توفي في الثامن من شهر مايو ، في الخامسة والأربعين فقط ، فوقع موته في فيمار وقع الصاعقة ، وارتدت ثوب الحداد

٣٠٤٩

آلام فرتر

لشاعر الغيلوف جوتة الألماني
ترجمها الاستاذ احمد حسن الزيات
ثمنها ١٥ قرشاً